دوَّامـــةُ الريـــح
Vortex of the wind

«وإذا المَوْءُودةُ سُئِلَتْ بأي ذنب قُتِلَتْ».

{التكوير ٨،٩}

«لولا أن سبقت رحمة الله غضبه لعجل الله لك العذاب». قالها النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وأد ابنته في الجاهلية، وقال لآخر وأد بناته: «من لايرحم لايرحم، وإن لك يوماً سيئًا، فقال قيس بن عاصم: ماذا افعل لتكفير ذنبي؟ فقال النبي (ص): حرر من العبيد بعدد ما وأدت».

دَوَّامَةُ الرِّيحِ .. !!

توقفَ عقلي كَما تسمرتْ قَدمَامي وقتَ القَيلولةِ، بينما انطلقَ قَلبي يَعْدُو بخطواتٍ متباينةٍ يسابقُ الرِّيحَ، مَددتُ سَمْعَي لصوتٍ هَامسٍ ينبعثُ مِنْ تحتَ قدمَيّ، إنَّهُ صَوتٌ أنثوي .

تساءلتُ : يا إلهي .. هَلْ هَذا الصوتُ الذي أسمعَهُ حَقِيقِي .. أمْ إنَّهُ صَدَى لصَوتٍ آتٍ مِنْ هذه البيوتِ العَتِيقةِ، المُجَاورةُ للقُبُورِ؟!

عنَّفْتُ نَفْسَي مُتسائلاً : لماذا مَررتُ ليلاً من هُنا بينَ تلكَ القُبور؟ فقدْ حَذَّرَنِي النَّاسُ مِرَاراً بألا أعبرَ هذا الطريقَ المُمتدَ وسطَ الجبانةِ، خَاصَةً ليلاً أو وَقتَ القَيلُولةِ، فالطريقُ مسكونُةٌ، تكثرُ الأشباحُ في هذه الأوقاتِ .. فكلُ مَنْ مَرَّ مِنْ هُنَا شَاهَدَ أو سَمِعَ ما يَشِيبُ لَهُ الولدانُ .

- مَنْ أنتَ ..؟ ومَنْ جاءَ بِكَ هُنَا .. هَلْ أنتَ رجلٌ تَحمِي حَرِيمَكَ وَشَرَفَكَ ؟ .. وهَلْ للرجَالِ شَرَفٌ .. ؟!

- يَا إلهي .. إنَّهُ صَوتٌ حَقِيقِي، وربمَا هو الصَوتُ الأنثَوي الَّذِي كُنْتُ أسمَعَهُ، إنَّهُ صَوتٌ وَاهِنٌ بَاكٍ، ينبعث من تحت أطباق الثرى؛ فاقتَربتُ مِنْ مَصدَرِ الصَّوتِ متسائلاً :

- مَنْ المُتَكَلِمُ .. أعَزْكِ اللهُ ..؟

تلاشتْ طبقاتُ الصَّوتِ حتى اختفتْ تَمَامَاً، وكَأنَّمَا لَمْ أسْمَعْ شَيئاً مِنْ قَبْلُ. فَجْأةً يُفْتَحُ بَابُ مَقْبَرةٍ عَتِيقٌ، وتَخْرُجُ مِنْهُ عَجُوزٌ شَمْطَاءَ تَزحَفُ بِيَدَيهَا وعَلى رُكْبَتَيهَا، ذات شَعرٍ أبيضَ أشعَثَ، وعينين سَوداوين مُغَضَنَتَينِ، كَأنَّهُمَا قِطْعَتَا فَحْمٍ فِي لَيلٍ حَالكَ السَّوادِ، كَأنَّهَا طِفْلَةٌ تَحْبُو عَلى أربَعٍ ...

ارتجفتْ أوصَالُي وَتَصَبَبَ عَرَقِي، وتَحَجَرَتْ كَلِمَاتِي فِي حُلقومِي، وَجَفَّ رِيقي .. تَسَاءَلَ عَقْلي :

- هَلْ هِي إنسِيّةٌ أمْ جِنْيّةٌ ؟!

- لِمَ تَخَافُ وترتجفُ؟ كَمْ كُنْتُ أتَوَقّعُ أنَّكُم بَنِي البَشَرِ مِنْ الرجالِ شُجْعَان .. أتَخَفْ مِنيّ يا ولد .. مِنْ عَجُوزٍ شَمْطَاء مِثلِي تَمْتَلِكُ خَمْسَةً وثمَانِينَ عَامًا؛ خَمسَةٌ فَوْقَ الأرْضِ، وثَمَانُونَ تَحْتَ الأرْضِ.. لَسْتُ عِفرِيتَةً ولا شَيطانَةً، إنَّمَا أنَا إنسَانةٌ .. !!

دَعْكَ مِنْ شَعْرِي الأبيضِ الأشْعَثِ الأغْبَرِ المُفْزِعِ كَمَا تَرَاهُ، دَعْكَ مِنْ هَذا الظَهْرَ الَّذِي احْدَوْدَبَ كَالعُرجُونِ القَدِيم، دَعْكَ مِنْ هَاتِيكَ الأرْبَعِ، فأنَا لَمْ أستخدم على الأرضِ إلا إيَّاهُم، ومَازِلتُ مَعْ كُلّ ذَلِكَ طِفْلَةً صَغِيرَةً لَمْ يَتَجَاوزْ عُمرِي خَمْسَ السَنَواتِ فَوْقَ الأرضِ، ولكنَّ الثَّمَانِينَ التِي تَرَاهَا عَياناً بَيَانَاً، لَمْ أرَ فِيهِنَ الشَّمْسَ وَلا النُّورَ .. كُلُ لَيلةٍ أُحَدّثُ نَفْسِي مِرَاراً يَا وَلَدِي ... بَأي ذَنبٍ قَتلونِي .. !!!

- كيفَ تَعِيشِينَ فِي هَذِه المَقْبَرةِ مُنْذُ الخَمسِ والثَّمَانينَ سَنةً ؟!

- قُلْ مُنْذُ ثَمانينَ عَامَاً ... عِشْتُ فِي وِحْدَةٍ، وَفِي شَرَفٍ...!

- شَرفُ ... ماذَا تَقْصُدِينَ؟!

- شَرَفٌ .. ألا تَعْلَم معنَى الشَّرفِ؟ ألسْتُ الآنَ فِي شَرَفٍ، لا تَقُلْ مُنْذُ الخَمْسِ والثمانينَ سَنةً، بَلْ قُلْ مُنْذُ الثَّمَانينَ سَنةً فَقَطْ، وأنَا فِي وَحْدَتِي شَرَفٌ .. غَسَّلُوا عَارهُمْ مُنْذُ ثمانينَ عَامَاً.. !

- أتَحْفَظُ السِّرَ... !

- نَعَمْ ....

- أهلي .. دَفَنُوني هَا هُنَا، كُنْتُ أمْتَلكُ خَمسَ سَنَواتٍ عِجافٍ، وَلَمْ يَنْتَظِرُوا النَّزعَ الأخِيرَ .. فَهُمْ كَانُوا دَائمَاً عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِم، مُتَسَرِعينَ فِي قَراراتِهِمْ حتَى فِي دَفْنِي .. فَلَمْ يُحْكِمُوا إغلاقَ بَابَ المَقْبَرَةِ؛ فَانْبَعَثَ ضَوءٌ خَافِتٌ دَاخِلَهَا، حِيْنَما قَفَلُوهُ عَلَيَّ وَقَفَلُوا إلى بُيوتِهِم مُطْمَئِنِينَ، وَنَفَّضُوا أيدِيَهُمْ مِنْ الْعَارِ..

- هل أذنبتُ فِي حقهم يا ولدي ..؟ ماذا صنعتُ لهم؟ ماذا اقترفتْ يداي الغَضَّة؟! .. هل قتلتهم حينما أطلقتني أمي من رحمها

في وجوههم، في منتصِف ليلةٍ شتويةٍ عَاهرة، يومَ أن جلسوا ينتظرون الطَّلقَ على أحرَمن الجمرِ؟! .. هَلْ كُنْتُ قذيفةً في وجوههم لم تُغتَفرْ؟ فبأي ذنبٍ قتلوني..؟ ألستُ موؤدةً سيسألهُمْ رَبُهُمْ عَنّي يومَ القيامةِ ؟!

- أَسْأَلُكَ يَا بُنَيّ: هَلْ هُمْ فِي شَرَفٍ الآنَ؟خَبرني عَنْهُمْ، وَلِي أنْ أمْنَحَكَ الحَيَاةَ والشَّرَفَ ..؟!

- كيف تمنحينني الشَّرفَ، وأنا الشَّرفُ نَفْسُهُ ... ؟!

- نَعَمْ، إنَّكَ الشَّرَفُ نَفْسُهُ، نَسِيتُ يَا بُنَيّ، لا تُؤاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ، فَإنَّهُ زَهَايمرُ العُمْرِ

- ولكن جدتي .. هل يمكن أن أساعدكِ ؟

- فيما تساعدني ...؟

- أن تتركي هذا المكان وتأتي معي، إلى بلدتنا وبيتنا وإخوتي وأهلي؛ إنهم سوف يعتنونَ بِكِ .

- وهل أهلكَ يعيشون الآنَ ..؟ لقد قتلتهم زماناً .

- لا يا جدتي .. إنَّكِ طَيبَةٌ، وأريدُ أنْ أساعدكِ ..

- مساعدتُكَ لِي أنْ تُدْخِلَنِي قَبْرِي .. وتقفل عليَّ جيداً، حتى لا أراكم مرة ثانية .. كنتُ أبحث من زمنٍ عَمَنْ يُخلصني من الحياة حتى أستريحَ، وتصعدَ روحي إلى ربي ...

- جدتي .. وما ذنبكِ في كل ذلكَ ؟

- أنتَ قلتَ .. ما ذنبي ..؟ ذنبي إنني ...!!!

- وهل الأنثى ذنبٌ ...؟!

- اسألوا أنفسكم ..... ؟!

- أين أمُكَ التي أنجَبَتكَ، أينَ جَدَّتُكَ التي أنجَبت أُمُكَ، أينَ جدةُ جَدتكَ، أينَ جدتُهم حواءُ التي أخرجتْ جَدَّهُمُ مِنْ الجَنَّةِ .. أليسَتْ هِي الحَقِيقَةُ ؟

- لا .. ليستْ الحَقِيقَةَ ... ولماذا اتهموا الأنثى ؟!

- ألستُ ذنباً من يوم الخليقةِ ؟

أحسستُ بدوار في رأسي، شاهدتُ البرقَ يضربُ بعروقه كبد السماء، والرعدُ والبرق يقصفان كلَّ مكانٍ، والمطر ينهمر بغزارةٍ ليسقي الأرض العطشى، نظرتُ حولي أبحث عن مكان أتدثر فيه، فإذ بدوامةٍ من الريح تقتلع جذوري أنظر تارةً إلى نفسي، وتارة إلى باب المقبرة، أتلصص على العجوزِ؛ فلم أجد لها أثراً، وكَأنَّ السماءَ خَطَفَتْهَا أو الأرضَ ابتلعتها .. يا إلهي ماذا يحدث .. هل أنا في علمٍ أم حُلم ..؟ قطعاً، إنَّهُ حُلم، لا إنهُ العِلم والحُلمُ مَعَاً .. كم هي الحياة تجمع بين النقيضين، بين العلم والحُلم، بين الحقيقَةِ والخيال، بين الصِّدقِ والكذبِ، بين الشَّرَفِ والرذيلة.. ليتني كُنتُ مخلوقاً غيرَ البشرِ.. !!